لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب
نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

تأليف

عبد الرحمن بن نصر الشيزرى

قام على نشره

السيد الباز العرينى

مدرس بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية

بإشراف

محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول

الثمن ٢٥ قرشاً

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٥ — ١٩٤٦

تصدير لكتاب
نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى

يُخيّل إلىّ أنّ التاريخ الاجتماعى ، وهو طورٌ لا ريب جديد فى مدارج البحث التاريخى ، سيصبح عما قريبٍ هو النوع الوحيد الذى تصحّ تسميته تاريخاً عند الإطلاق ؛ وسيتعين على المؤرخين آنذاك فى المستقبل أن يسموّا ماعدا هذا النوع من الأبحاث التاريخية بأسماء مركبة ، فيقولون التاريخ السياسى ، والتاريخ الدستورى ، والتاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الحربى ، وهَلُمّ جرّا . ولست أرتجل هذه الفكرة حباً فى الطلوع برأى غير مألوف ، كما أنى لست ألقى القول جزافاً رغبة فى التفرّد بجديد ؛ فالتاريخ عند فيلسوف المؤرخين ابن خلدون بحثٌ " فى أحوال العمران والتمدين ، وما يعرض فيه للاجتماع الإنسانى من العوارض الذاتية ... " . والتاريخ الاجتماعى فى صورته الحاضرة ، وإنْ اقتصر على التعريف بطرق الحياة عند الفرد والجماعة ، وعلى شرحِ وسائل الكسب والمعيشة اليومية ، ووصفِ المجتمع فى تقدّمه وتأخّره ، إنما يوضّح فى الواقع آثار الملوك فى ممالكهم ، وينوّه بالرؤساء والزعماء السياسيين وقادة الفكر فى عصورهم المختلفة ؛ وهو يفسّر كذلك أسرار قيام الدول وسقوطها ، وتعاقبَ الملوك وتوارثَ العروش ، واشتعال الحروب وخمودها ، وانعقاد المؤتمرات وانفصامها ، لأنّ واحداً من هذه الأشياء لا يمكن أن يتأتّى إلا نتيجة لما بالمجتمع من عوامل ومؤثرات ظاهرة وباطنة . ذلك أنّ الدولة التى تستطيع النموّ والتوسّع — اقتصاديا أو حربياً — لا بدّ أن تستمد استطاعتها هــذه من مجتمع قادر على النموّ والتوسّع ، دون أن يفقد ذلك المجتمع شخصيته وخصبه العقلى ؛ كما أن الدولة التى تبدو عاجزة قاصرة بالقياس إلى غيرها من الدول ، لابدّ أن يكون قصورها وعجزها أثراً لما بالمجتمع نفسه من نقص مادى أو روحىّ ، وهكذا .

وكتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " للشيزرى ، الذى تخرجه لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا العام ، نبع من منابع التعريف بأحوال المجتمع الإسلامى عامة — والشرق الأدنى خاصة — فى العصور الوسطى . وهو لذلك مورد من أقرب الموارد الصافية التى سيغترف

منها المشتغلون بكتابة التاريخ الإسلامى حسب الأسس الجديدة ، وليس له شبيه فى تصويره الحياة اليومية — فيما أعلم — إلا ما كتبه المتأخرون فى الحسبة كابن الأخوة ، أو النواحى الاجتماعية عموما كابن الحاج فى " المدخل " والمقريزى فى " إغاثة الأمة " ، وهؤلاء جميعاً — فيما يبدو — قد استقوا من الشيزرى ، أو نقلوا منه مباشرة أو بالواسطة ، كما أوضح الناشر فى مقدمته العلمية .

وقد قرأتُ هذا الكتاب الصغير أوّل مرّة مخطوطا أيام طلبى العلم فى إنجلترا ، واختلافى إلى المتحف البريطانى بلندن ، أى منذ خمس وعشرين سنة على وجه التحديد ، فعرفتُ له قيمته بين النصوص القديمة ، وجعلته فى مستودع الآمال ، وتمنّيت أن أجد الفرصة المواتية للقيام على نشره فى صورة علمية نافعة . ثمّ مضت السنون ، وتعاقبت علىّ طبقات من الطلبة بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ؛ وما عتّمتُ أن وجدتُ فى أحد الممتازين منهم ، وهو السيد الباز العرينى ، استعداداً غير عادىّ لتحقيق ما أصبو إليه ، على الرغم مما يتطلّبه النشر العلمى الصحيح من مجهود صامت وصبر طويل . وإذ يخرج هذا الكتاب اليوم من غيابات المخطوطات إلى عالم المطبوعات الحية ، فإنى جديرٌ أن أشكر الناشر على جهوده الموفقة فى تحقيق أملٍ من آمالى ، وفى إتحاف المكتبة العربية بمتن هامٍ له الأسبقية والمنزلة الأولى بين المتون الخاصة بالحسبة .

غير أنّ أهمية الكتاب لا تنحصر فى مجرّد أسبقيّته وأفضليته على سائر الكتب المشابهة ، كما أنها لا تستند إلى إفاضة مؤلفه فى بيان ما ينبغى للمحتسب أن يتحلّى به من الصفات ، أو يقوم عليه من مراقبة السوقة والأسواق ؛ بل تظهر أهميته كذلك فيما جاء به من ذكر ما كان يقوم به أصحاب الحرف والصناعات من أنواع الغشّ فى مبيعاتهم ومعاملاتهم ، مما ينبئ ببعض أحوال التجارة والتجار ، فى عصر المؤلف على الأقلّ . يضاف إلى ذلك ما بالكتاب من الحقائق الكاشفة عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، كاستخدام النساء فى تنظيف القطن والكتان على أبواب الحوانيت بالطريق العام (ص ٦٩ ، ٧٠) ، وشغف نساء بغداد بالأخفاف التى تصرّ عند المشى لاجتذاب الأنظار (ص ٧٣) . وبالكتاب كذلك كثير من الألفاظ العربية الفصيحة والمولّدة الصحيحة ،

مثل الدوّارين ونصاب المبضع والمِلْزَم ونحوها (انظر الفهرس) ، ممّا يغوص أهل العربية فى بطون المطوّلات والأمهات لالتقاطه ، حرصا على المرادفات التى يُستغنى بها عن بعض الألفاظ الأعجمية التى حلّت محلّ السليم فى الاستعمال . والذين يقيسون الكتب بمقدار ما فيها من تسلية ، يجدون كذلك فى هذا الكتاب كثيراً من الأخبار الطريفة ، مثل أخبار قلاَّئى السمك وصُنَّاع الزلابية ، وحيل الجرائحية والكحّالين ، ومثل أنواع الأطعمة التى لم يستطع الناشر أن يتذوّقها أو يصيبها بتعريف من مراجعه الكثيرة .

على أنّ المزية الكبرى لهذا الكتاب ، هى مافيه من أخبار عن حقيقة النظم الإسلامية وخصائص المجتمع الإسلامى ، فهذا منصب الحسبة — وهو منصب قام بمصر قياما متّصلا منذ العصور الوسطى إلى زمن محمد على الكبير — قد هيمن متولّيه على أكثر من أربعين ناحية من نواحى الحياة اليومية ، بحيث شملت ولايته " أن يتردّد إلى مجالس القضاة والحكام ، ويمنعهم من الجلوس فى الجامع والمسجد للحكم بين الناس " (ص ١١٣) ، وأن " يقصد مجالس الأمراء الولاة والأمراء ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويعظهم ويذكّرهم ، ويأمرهم بالشفقة على الرعية " (ص ١١٥) ؛ وهذا وذاك فضلا عن مراقبة الخبازين والأساكفة ، والأطباء والمؤدّبين — حتى السقائين والغسالين . فهل معنى هذا أنّ المجتمع الإسلامى كان فى غير حاجة لوازع القانون ، بحيث أمكن الجمع بين كثير من جهات الضبط والربط والإدارة فى يدٍ واحدة ؟ أم معنى هذا أنّ روّاد السوق من المنتجين والمستهلكين كانوا عدداً ضئيلا بالنسبة إلى بقية السكان الذين لم ينعموا ببيع أو شراء إلا فى النادر ، بحيث استطاع المحتسب أن يسيطر فى اليوم الواحد — بمساعدة عيونه وغلمانه وأعوانه — على ما تقوم به عدّة إدارات وزارية فى العصر الحاضر ؟ ثم أسألُ أخيراً عن سرّ قيام المحتسب بمراقبة كلّ ما جاء بالمتن هنا من نواحى الحياة اليومية ، على حين عدم اختصاصه بمراقبة عمل السكر ، واستخراج عسل النحل ، وأحوال القيان ، وشئون المدارس (وهذه غير الكتاتيب طبعاً) . هذه أسئلة يوحى بها المتن إلى القارئ بادئَ القراءة فى هذا الكتاب ، ولا إخال المتوفّر على البحث فى المجتمع الإسلامى إلا واجداً جملةً أخرى من الأسئلة .

وبعد فإنى أترك المتن يخبر عن مزاياه التى بينتُ بعضها فحسب ، كما أترك الحواشى تخبر بنفسها عما بذله الناشر من جهد بالغ وعناية مشكورة . وإنى لأرجو أن يعمد العاملون إلى إخراج الكثير من أمثال هذا المتن ، كى تصبح كتابة التاريخ كما ينبغى أن يكتب التاريخ .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة ٢١ رجب ١٣٦٥ هـ
٢١ يونية ١٩٤٦ م

مقدمة الناشر

أوّلُ من فطن إلى كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى هو الدكتور ڤالتر برناور (Walter Behrnauer) ، أمين المكتبة الإمبراطورية بمدينة ڤينا ، وذلك فى أثناء دراسته لنظام الشرطة عند العرب والفرس والترك ، إذ كتب سنة ١٨٦٠ م فى ذلك الموضوع بحثا(١) تعرّض فيه للحسبة ، وأتبعه بترجمة تلخيصية لهذا الكتاب(٢) الذى تخرجه لجنة التأليف والترجمة والنشر فى مطبوعاتها هذا العام .

وترجع أهمية الكتاب — بالقياس إلى غيره من الكتب التى أُلِّفت فى الحسبة — لعدّة ميزات : منها أنّ مؤلفه أسبق المؤلفين فى موضوع الحسبة من الناحية العملية فى الشرق الإسلامى ، إذ عاش فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، ولم يتناول ذلك الموضوع قبله إلاّ أفراد قلائل ، مثل الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) فى كتاب " الأحكام السلطانية "(٣) ، والغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) فى كتابه " إحياء علوم الدّين " ، وكلاهما تغلُبُ على كتابته الصفة الفقهية البحتة . ومنها أنّ هذا الكتاب صار فيما بعد أساسا لما كتبه ابن الأُخُوّة وابن بسّام وغيرهما فى الحسبة ؛ أما ابن الأخوّة المتوفى سنة ٧٢٩ هـ (١٣٣٨ م) ، فإنه ألّف كتابه المسمى " معالم القربة فى أحكام الحسبة " فى

---

(١) نشر هذا البحث تحت عنوان (Behrnauer : Mémoire sur les Institutions de Police chez les Arabes, les Persans et les Turcs. Journ. As. 5e Série, 1860, T. XV, pp. 461—509, T. XVI, pp. 114—190).

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان " نبذة فى التنظيمات السياسية المختصّة بالضبطية عند العرب والفرس والترك " ، ونُشر بمجلة روضة المدارس (عدد ١٥ شعبان سنة ١٢٨٩هـ ، ١٨٧٢ م) ، ثم نشرت هذه الترجمة فى كتاب مستقل ، توجد منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٣٢٥ تاريخ .

(٢) اعتمد برناور فى هذا التلخيص على مخطوطة المكتبة الإمبراطورية بڤينا ، وهى إحدى المخطوطات التى اعتمد عليها الناشر فى مقارنة المتن وضبطه وتحريره (انظر صفحة ن) ، وقد نشر برناور تلخيصه بعنوان :

(Notice particulière sur la Charge de Mouhtasib par le Scheikh Annabrawi. Journ. As. 5e série, 1860, T. XVI, pp. 347—392, T. XVII, 1861, pp. 5—76).

(٣) يظهر أن ما كتبه الماوردى فى الحسبة جُمِع فى كتاب أطلق عليه اسم "الأحكام فى الحسبة الشريفة" ، وتوجد منه مخطوطة بالمكتبة الخالدية بالقدس يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع الهجرى . انظر أحمد سامح الخالدى : حول كتاب فى الحسبة . (مجلة الثقافة ، عدد ٨ ، سنة ١٩٣٩ م) .

سبعين بابا ؛ وقد دلّت المقارنة على وجود تشابه كبير بينه و بين كتاب الشيزرى ، مما بيّنه المستشرق الإنجليزى روبن ليفى (Reuben Levi) فى حواشيه لكتاب ابن الأخوّة[1] . وأما "كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة" لابن بسّام[2] الذى عاش فى مصر فى القرن الثامن الهجرى[3] (الرابع عشر الميلادى) ، فيبدو كذلك أنّ معظمه منقول من كتاب الشيزرى ، إذ أنه فضلا عن اتفاقه مع كتاب الشيزرى فى العنوان ، فإن مقدمتهما واحدة ، وذلك باعتراف ابن بسّام نفســه ، بل يبدو أنّ ابن بسّام أخذ تأليف الشّيزرى فنسبه إلى نفسه عنوانا ومتناً ، بعد أن أضاف إليه أبواباً متعددة ، مما جعلها تبلغ أربعة عشر ومائة باب ، على حين أن كتاب الشيزرى فى أربعين بابا فقط .

ولقد حدا هذا التشابه المادّى بالدكتور برناور إلى القول بأن هذه الكتب الثلاثة ليست إلا كتابا واحداً ، تناوله مؤلفون مختلفون بزيادات وتعديلات ، بحسب البلاد والأزمنة التى عاشوا فيها[4] ، أى أنّ كتاب الشيزرى أصل لكتابى ابن الأخوّة وابن بسام ، أو لأحدهما على الأقلّ ، وذلك لأسبقيته الزمنية ، ولاتفاق الكتابين المتأخّرين معه إلى درجة كبيرة فى الموضوعات والأبواب والفصول ، وفى عرضها أيضا . يضاف إلى ذلك أن معظم الكتب التى أُلّفت فى وصف المجتمع المصرى مثلاً فى عصر سلاطين المماليك استمدّت من الشيزرى ، مباشرة أو من طريق غير مباشر ؛ والبينة على تلك الدعوى واضحة من مقارنة ما جاء بكتاب المدخل لابن الحاج ، فيما يتعلق بالقصارين والبزازين ومؤدبى الصبيان[5] ، بما جاء بالمتن هنا فى الباب الحادى والعشرين والرابع والعشرين والثامن والثلاثين[6] ، مما يرجح أن كتاب

---

(١) نشر الدكتور روبن ليفى هــذا الــكتاب مع ترجمة إنجليزية فى مجلد واحد ، فى مجموعة جب التذكارية (Gibb Memorial New Series. Vol. XII, Cambridge, 1938) .

(٢) يوجد من كتاب ابن بسّام نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية بدار الـكتب المصرية بالقاهرة . (فهرس الخزانة التيمورية ، رقم ٢٥ اجتماع) .

(٣) انظر لويس شيخو : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة . (مجلة المشرق ، المجلد ١٠ ، العدد ٢١ ، سنة١٩٠٧) ؛ وكذلك كردعلى : الحسبة فى الإسلام . (مجلة المقتبس ، المجلد ٣ ، سنة ١٩٠٨) .

(٤) انظر (Behrnauer : Mémoire sur les Institutions de Police chez les Arabes, les Persans et les Turcs. (Journ. As. 1860, T. XV, p. 464).

(٥) ابن الحاج : المدخل ، ج ٢ ، ص ٣١٤ — ٣١٥ ، ج ٤ ، ص ١٦ — ١٨ ، ص ٢٧ — ٣٦ .

(٦) انظر ما يلى ص ٦١ — ٦٣ ، ٦٧ — ٦٨ ، ١٠٣ — ١٠٥ .

الشيزرى هو الأصل على وجه الإطلاق لجميع ما كتب فى الحسبة وما يتعلق بها فى الدولة الإسلامية عموما .

وثمّت ميزة أخرى لهذا الكتاب تميّزه فى الواقع عن جميع الكتب التى وضعت فى الحسبة ، وهى الإسهاب فى شرح غشوش العقاقير ، ووصف فروع الطب المختلفة ، ثم الاهتمام بمراقبة أهل الذمّة وحركات الباطنية . وربما كانت علّة هذا الاهتمام أنّ عصر المؤلف — وهو القرن السادس الهجرى — كان عصر إحياء السنة ، وقد تخلّلته المنازعات بين السنة والشيعة فى كثير من جهات العالم الإسلامى[1] ، فضلا عن مصر ، ونشبت الحروب الصليبية فى أثنائه ، فأصبح يخشى من ممالأة الذميين فى البلاد الإسلامية للصليبيين ، سيما وأنّ أرباب الحرف والصنائع كان أكثرهم من أهل الذمة[2] . على أنّ الذى يدعو إلى الالتفات هنا أن أمور الباطنية وحركاتها كانت داخلة فى أعمال المحتسب ، وتلك مسألة ذات أهمية فى البحث فى أصل الحسبة ونشأتها فى الدولة الإسلامية .

يضاف إلى ذلك ميزة لا تقلّ عما سبق ، وهى كثرة النسخ الخطّية الموجودة من هذا الكتاب ، إذ يبلغ عددها أربع عشرة نسخة ، اجتمع منها فى مصر ثمان[3] ، والنسخ الأخرى محفوظة بمختلف دور الكتب الأجنبية .

أما المؤلف فقد اضطربت جميع مخطوطات الكتاب فى ذكر اسمه ولقبه وكنيته ومذهبه ، مما جعل بروكلمان (Brockelmann) يورد معظم الصيغ التى وردت فى مؤلّفاته المختلفة عند التعريف به ، إذ سمّاه " جلال الدين أبو النجيب أبو الفضائل عبد الرحمن بن نصر بن عبدالله الشيزرى التبريزى العدوى الشيرازى[4] " . على أن بروكلمان أغفل ذكر ألقاب للمؤلف غير هذه ، مع ورودها فى بعض النسخ الأخرى من كتاب نهاية الرتبة ، فهو فى إحدى مخطوطات[5] دار الكتب المصرية ، وفى مخطوطة برلين " زين الدين " ، وفى مخطوطة فينا

(١) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ج ٩ ، ص ٩٠ — ٩١ ؛ ج ١٠ ، ص ١٤٧ ، ١٩٨ ؛ ابن الطقطق : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢١٨ ؛ وكذلك (Ency. Isl. Art. Sinf) .

(٢) انظر (Précis de l'Histoire d'Egypte, II. pp. 267—269) .

(٣) انظر فهرس دار الكتب المصرية (الجزء السادس — صناعات ، أرقام ٢٠ ، ٢١ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٧٣) ، وفهرس الخزانة التيمورية ، رقم ٢٦ اجتماع ، وفهرس دار الآثار العربية ، رقم ٣٢٧٣ (فى ملف خاص) ، وفهرس مكتبة الأزهر (مكتبة أباظة ، رقم ٧٢٧٦) .

(٤) انظر (Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur. Supplement Band I. p. 832).

(٥) المخطوطة المرموز لها بالحرف ص هنا . انظر ما يلى .

" تقى الدين " ، وفى مخطوطة الخزانة التيمورية " جمال الدين " . ويتّضح من هـذه الـكثرة أنّ معظم هذه الألقاب مدسوس على المؤلف من الناسخين ، ولا سيما أن أغلب النسخ مكتوب فى عصور متأخرة ، وكثير منها فى عصر المماليك ، كما يبدو واضحا من تواريخ كتابتها ، وهو عصر أسرف الـكتّاب فى استعمال الألقاب والـكنى بحسب أغراضهم ، ولم يتّفقوا فيها على طريقة واحدة ، بل قصدوا مخالفة من تقدّمهم فى ذلك[1] .

واختلفت النّسخ أيضاً فى اسم المؤلّف ، غيرأن الاسم الأكثر استعمالا هو عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله ، وكان شافعى المذهب . وكذلك اختلفت النسخ فى نسبته ، فهو النبراوى[2] ، والشيرازى[3] ، والشيزرى[4] ، والتبريزى[5] ، والعدوى[6] ؛ ويظهر أن هذا الاضطراب راجع إلى تقارب رسم هذه الـكلمات[7] ، أو إلى غفلة الناسخين ، وأصحها جميعاً نسبة المؤلف إلى شيزر ، لورودها فى أكثر من نسـخة واحدة ، ولأنّ المؤلف بدأ كتابته فى الموازين والمثاقيل بالإشارة إلى شيزر[8] قبل غيرها من مدن الشام والبلاد الأخرى ، كما أشار ابن قاضى شهبة إلى المؤلف منسوبا إلى شيزر[9] .

ومع أن الناشر لم يستطع أن يعثر للمؤلف على ترجمة ، فمن الواضح أن الشيزرى كان معاصرا للسلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، إذ أهدى إليه كتابه " النهج المسلوك فى سياسة الملوك[10] " ، ولعله وضع كتابه فى الحسبة بناء على طلب صلاح الدين من طريق غير مباشر ، لمساعدة الحـكومة الأيوبية فى مراقبه أرباب الحرف والصنائع ، لما كان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٨٩ .
(٢) مخطوطة ڤينا المرموز لها هنا هـ .
(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ ٥ ، ص٥٠٧ ؛ جـ ٣ ، ص٥١٠ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١٢ ، ص ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ .
(٤) مخطوطتا دار الـكتب المصرية س ، ص ، وكذلك مخطوطة الأزهر ع .
(٥) مخطوطة المـكتبة التيمورية ت ؛ وكذلك حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ ٦ ، ص ٤٠١ .
(٦) مخطوطة ليبزج م ؛ وكذلك حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ ٦ ، ص ٤٠١ .
(٧) جاء فى مجلة الـكتاب الصادرة بالقاهرة — عدد أبريل سنة ١٩٤٦ ؛ ص ٩٢٢ — أن نسبته "الشهرزورى" ، ولم يستطع الناشر أن يعثر على أصل لتلك النسبة .
(٨) انظر ما يلى ص ١٥ ، حاشية ٨ ؛ وكذلك ص ١٧
(٩) ابن قاضى شهبة : الـكواكب الدرّية فى السيرة النورية ، ص ٤٧ .
(١٠) الشيزرى : كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ١٣ .

معروفا من ميولهم للدولة الفاطمية[١] . و يتّضح كذلك من تنوّع المؤلفات المنسوبة للشيزرى ، ومن كثرة إشاراته للشام و بلادها ، أنه قضى فترة من حياته بتلك البلاد — إن لم يكن شامى الأصل — ، ور بما تولّى وظيفة القضاء باحدى بلادها ، إذ اعتبره حاجى خليفة[٢] قاضيا لطبرية ، وأورد فستنفلد[٣] (Wustenfeld) اسمه على أنه كان طبيبا بحلب حوالى سنة ٥٦٥ ﻫ (١١٦٩ م) . غير أنه ليس لدينا ما يثبت أن الشيزرى تولّى الحسبة سوى معلوماته الضافية عن واجباتها ، ومعرفته التامة بدخائل الأسواق وأهلها ، والسلع وأنواعها فى عصره ، مما يحتمل بأنه كان يجمع بين وظيفة القضاء ووظيفة الحسبة فى طبرية ، إذا صحت إشارة حاجى خليفة السالفة الذكر .

وكيفما كان الأمر فقد مات الشيزرى حوالى سنة ٥٨٩ ﻫ (١١٩٣ م) ، حسبما قرّر بروكلمان[٤] ، وهى السنة التى توفى فيها صلاح الدين الأيوبى ؛ ولكن بروكلمان لم يبين المراجع التى اعتمد عليها فى تحقيق هذا التاريخ ، وليس بالمراجع المتداولة هنا ما يساعد على التأكد من وفاة المؤلف فى تلك السنة .

وللشيزرى عدا كتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " ، وكتاب " المنهج المسلوك فى سياسة الملوك " الذى تقدمت الإشارة إليه ، مؤلفات كثيرة فى موضوعات مختلفة ، وهى " الايضاح فى أسرار النكاح[٥] " فى مجلدين — الأول خاص بالرجال والآخر خاص بالنساء ، و" خلاصة الكلام فى تأويل الأحلام[٦] " ، و" روضة القلوب ونزهة المحب والمحبوب[٧] " .

(١) انظر (Ency. Isl. Arts. Sinī, Shādd) .

(٢) حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج ٣ ، ص ٥١٠ .

(٣) انظر (Wüstenfeld:Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher. p.100.) .

(٤) انظر (Brockelmann : Op. Cit. I, p. 832.) .

(٥) حاجى خليفة . كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥٠٧ .

(٦) حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج ٦ ، ص ١٦٦ . وهذا الكتاب مترجم إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان :
(Vattier : L'Oneirocrite Musulman ou Doctrine de l'Interpretatiou des Songes, par Gabdarrachaman fils de nasar . Paris, 1664).

(٧) حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج ٣ ، ص ٥١٠ . وتوجد نسخ لهذه المؤلفات فى المكتبات المختلفة . انظر : (Brockelmann: Geschichte der Arabischen Litteratur. I. p. 461; Supplement Band I. p. 832).

أما مخطوطات " نهـاية الرتبة فى طلب الحسبة " ، فقد تبين من قراءتها ومقابلتها أن نسخة دار الـكتب المصرية ، وهى المرموز لها هنا س[1] ، هى أحسن النسخ من جميع النواحى ، فهى كاملة لم يسقط منها فصول أو أبواب شأن النسخ الأخرى ، وتاريخ نسخها — وهو ٢٣ صفر سنة ٧١١ هـ[2] — يجعلها أقرب إلى عصر المؤلف من تواريخ المخطوطات الأخرى ، باستثناء مخطوطة الأزهر إذا سلّمنا بصحة تاريخها ؛ ولـكلّ هذه الأسباب اتخذ الناشر مخطوطة دار الـكتب المصرية المرموز لها س أصلا للنشر .

وهذه المخطوطة س فى مجلّد صغير الحجم ، غلافه من الورق المقوّى ، وعدد أوراقه ثلاث وخمسون ، لونها أبيض ضارب إلى الصفرة ، وفى بعضها آثار القدم ، مما استلزم لصق ورق شفاف على بعض أجزائها . وأبعاد الورقة ١٧ × ١١ سنتمترا ، وفى كلّ صفحة سبعة عشر سطراً ، وفى الصفحة الأولى عنوان الـكتاب فى حرد (Colophon) نصّه : " كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تأليف الشيخ الإمام العـالم عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزرى ، رضى الله عنه ، آمين " ، وفى أسفل هذه الصفحة أبيات من الشعر مكتوبة بخط أقل جودة من خط المتن ، ولم يظهر منها إلا صدورها ، وليس لها فيما يبدو علاقة بالـكتاب أو موضوعه[3] . وفى الصفحة السابقة للأخيرة أبيات من الشعر لشيخ اسمه أسعد الدين الدميرى الحنفى بخط مخالف أيضا ، وليس لهـا علاقة بالمتن[4] ، كما توجد بالصـفحة

---

(١) فهرس الـكتب العربية بدار الـكتب المصرية ، ج ٦ ، رقم ٢٠ صناعات .

(٢) انظر ص ١١٩ ، وبها صورة شمسية للصفحة السابقة للأخيرة من س .

(٣) انظر صفحة ف ، وبها صورة شمسية لصفحة العنوان ، حيث يمكن قراءة هذه الأبيات كالآتى :

ولى صاحب من أعظم النـا ... س فى البخل وأبدعهم فيـه
دعانى كما يدعو الخليل خليله ... ...
فلمـا جلسنا للغداء رأيتـه ... ...
فيغضب أحيـانا ويشـتم ... ...
أمدّ يدى سرّاً لآكل لقمة ... ...
... ...
وأهوت يمينى نحـو رجلى ... ...

(٤) انظر ص ١١٩ ، حيث يمكن قراءة هـذه الأبيات كالآتى :

يا قوم قد عجبت لمـا نظرت ... شمسان قد غابتا فى منزل أنف
فى يوم بين شمس الأفق غيبتها ... حين والأخرى بدمع سدسه قتف
فهل لثاقب فهم أن يصوّرها ... فى كل مؤتلف من كل مختلف

الأخيرة عبارة بخط مخالف كذلك ، ونصها " طالع فى هذا الكتاب المبارك التلميذ الفقير إلى عفو ربه المعترف .... (١) " ويلى ذلك لفظ مكرر عدة مرات ، وهو لفظ غير مفهوم للناشر على أى حال .

أما ناسخ هذه المخطوطة س ، وهو أبو بكر على البهنسى ، فيظهر من نسبته أنه مصرى من إقليم البهنسا ، مما يرجح أن هـذه النسخة كتبت فى مصر ، ودخلت فى حوزة بعض القارئين الذين خطوا هذه الأبيات والعبارات . والمتن مكتوب بالخط النسخى الجيد بمداد أسود ، والأبواب والفصول ورءوس الموضوعات مكتوبة بالمداد الأحمر ؛ ويبدأ المتن بالصفحة ١ ب ، وينتهى عند الورقة ٥٣ ا .

وقد تبين من مقارنة هـذه المخطوطة س بالمخطوطات الأخرى أن جميع النسخ التى توفرت للناشر تتفق فى عـدد الأبواب وترتيبها ، وإن اختلفت معها " س " أحيانا فى ترتيب بعض الفصول ، وفى بعض العبارات ؛ وقد أشير إلى ذلك كله بالحواشى . ويلاحظ أن الرسم الإملائى فى جميع النسخ يهمل الهمزات ، ويبدلها بحروف ممدودة مناسبة فى أواسط الكلمات ، ويحذفها فى أواخرها ، وأمثال ذلك الرايحة (الرائحة) ، وساير (وسائر) ، ويومرون (يؤمرون) ، واشيا (أشياء) ، وليلا (لئلا) ؛ وقد أصلح كلٌّ ذلك بغير تعليق ، إلا إذا كان هناك مايدعو إليه ؛ غير أنه يوجد فى معظم النسخ أخطاء جوهرية نتيجة لخطأ الناسخين وإهمالهم نقط الكلمات وعدم الدقة فى رسمها ، مما أخرج كثيرا منها عن المعنى المقصود .

أما النسخ الأخرى التى اعتمد عليها الناشر فى مقابلة النسخة س فهى :

١ — مخطوطة المتحف البريطانى بلندن(٢) ورمزها هنا " ل " ، وهى غير مؤرخة ، وعدد أوراقها ٧٩ ، وخطها نسخى جيد ، سقط منهـا بعض الفصول ، لـكنها انفردت ببعض زيادات مكملة للمتن ، وقد أضيفت إليه فى مواضعها . وبالصفحة الأولى من هـذه المخطوطة اسم محمد بن عبد الله الصفدى المحتسب(٣) .

---

(١) النقط إشارة إلى اسم لم يستطع الناشر استجلاءه .

(٢) توجد من هذه المخطوطة صورة شمسية بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، وهى مأخوذة من (British Museum. Ms. Or. 9221).

(٣) لم يتيسر الوقوف على ترجمة لهذا المحتسب ، ولعله من أسرة خليل بن أيبك الصفدى مؤلف كتاب =

٢ — مخطوطة ليبزج[1] ، ورمزها هنا "م" ، وتقع فى ٥٩ ورقة ، وعنوانها مكتوب بخط مخالف لخط المتن . وقد كتبت هذه النسخة بحلب فى ٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٢ هـ ، وهى كاملة النقط ، إلاّ أنها كثيرة الأخطاء فى رسم الكلمات ؛ وقد اعتمد عليها الناشر فى إضافة بعض الزيادات .

٣ — مخطوطة ڤينا[2] ، ورمزها هنا "هـ" ، وهى فى ٥٤ ورقة ، وغير مؤرخة ، وقد انفردت ببعض زيادات أثبتت فى مواضعها .

٤ — مخطوطة أخرى[3] بدار الكتب المصرية ، ورمزها هنا "ص" ، وتاريخ كتابتها ربيع الأول سنة ١٠٨٩ هـ ، وتتفق مع النسخة "م" من حيث الزيادة والنقص ؛ وقد استخدمت فى تصويب بعض الألفاظ ، وأثبتت زياداتها أيضا عند الحاجة .

٥ — مخطوطة مكتبة الأزهر[4] ، ورمزها هنا "ع" ، وتقع فى خمسين ورقة ، وقد سقط منها كثير من الأوراق التى تشمل الأبواب ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ و بعض فصول الباب الأربعين . وفى الصفحة الأخيرة منها توجد العبارة الآتية : "تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه سنة ٦٧٥" ، مما يجعل هذه المخطوطة أقدم النسخ إطلاقا ، غير أن هذا التاريخ موضع لبعض الشك ، لأن العبارة مكتوبة بخط مخالف لخط المتن . وتوجد بهذه النسخة زيادات أشير إليها فى مواضعها ، وبالصفحة الأخيرة منها اسم القاضى محيى الدين بن عتيق[5] .

= الوافى بالوفيات . على أن الذى يدعو إلى الالتفات هنا أن محتسبا قد استخدم هذا الكتاب لدراسة نواحى عمله ، ويظهر أن كثيرا من المحتسبين استعان به فى معرفة واجبات منصبهم ، والدليل على ذلك تعدد النسخ واختلاف تواريخها وأماكن نسخها .

(١) انظر (Vollers: Katalog der Islamischen Christlich - Orientalischen, Judischen und Samaritanischen Handschriften der Universitats — Bibliothek zu Leipzig, 1906, No. 398).

وصورتها الشمسية فى مكتبة جامعة فؤاد الأول .

(٢) انظر (Flugel, : Die Arabischen, Persischen und Turkischen Handschriften der Caiserlich-Koniglichen Hofbibliothek zu Wien. (Band III No. 831. Wien 1867).

وصورتها الشمسية فى مكتبة جامعة فؤاد الأول .

(٣) انظر فهرست الكتب العربية بدار الكتب المصرية ، جـ ٦ ، رقم ٧٢ صناعات .

(٤) انظر فهرس مكتبة الجامع الأزهر . (مكتبة أباظة ، رقم ٧٢٧٦) .

(٥) لم يتيسر للناشر العثور على ترجمة لهذا القاضى فى كتب التراجم المختلفة .

أما النسخ الأخرى التى لم يتيسر الحصول عليها ، فهى : نسخة مكتبة جوتا(١) بألمانيا ، ونسخة مكتبة برلين(٢) ، ونسخة مكتبة الجزائر(٣) .

على أنى استطعت أن أقوم على نشر هـذا المتن فى كثير من الاطمئنان ، وذلك لاتفاق المخطوطات التى توافرت لدىّ ، بفضل العناية المشكورة التى بذلتها المكتبة العامة لجامعة فؤاد الأول بالقاهرة للحصول على صور شمسية منها ، فضلا عن النسخ الموجودة بدار الكتب المصرية والخزانة التيمورية ومكتبة الجامع الأزهر .

و إنى لأشكر أستاذى محمد شفيق غربال بك ، وكيل وزارة المعارف العمومية ، لما شملنى به من رعاية وتشجيع منذ بدأت العمل فى هذا الكتاب . وأشكر كذلك أستاذى الدكتور محمد مصطفى زيادة ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، فهو الذى دلّنى على هذا الكتاب ، وأوصى بجعله جزءا من رسالتى للماجستير ، ودأب على معاونتى و إرشادى فى تحرير متنه وتعديل حواشيه بالحذف والإضافة ، كما أنه هو الذى أوصى لجنة التأليف والترجمة والنشر بطبعه ، وأشرف بنفسه على مراجعته وحبكه . وليس فى استطاعتى أن أنسى هنا فضل الأستاذ أحمد أمين بك ، رئيس اللجنة ، فى الموافقة على نشر هذا الكتاب ، كما أنى لا أستطيع أن أنسى فضل المستشرقين فولتون (Fulton) أمين قسم المخطوطات العربية بالمتحف البريطانى ، و بروكلمان (Brockelmann) وأوبن (Aubin) بجامعة برسلاو ، لتشجيعهم لى على المضىّ فى هذا العمل .

و بعد فإنى أرجو أن يكون الكتاب فى صورته المخدومة جديرا بانتباه الباحثين فى أصول المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى عامّة ، والمجتمع المصرى خاصّة ، كما أرجو أن يكون كذلك قميناً برضى القوَمة والعاملين على إحياء المنابع من تراث العرب، خليقا بالمكتبة العربية ، والقارئ العربى الجديد ؟

السيد الباز العرينى

القاهرة

٥ رجب سنة ١٣٦٥هـ .
٥ يونيه سنة ١٩٤٦م .

---

(١) انظر (Pertsch : Die Orentalischen. Handschriften der Herzoglichen Bibliothek zu Gotha. Die Arabischen Handschriften. Band III. No 1888. Gotha 1881).

(٢) انظر (Ahlwardt. W : Die Handschriften Verzeichnisse der Koniglichen Bibliothek zu Berlin. Verzeichnisse der Arabischen Handschriften. Band IV. No 4803. Berlin, 1892).

(٣) انظر (Fagnan, F. Catalogue Génerale des Manuscrits des Bibliothèques Publiques de France. Departments. T. XVIII. Alger. No. 1373. Paris, 1893).